الإخلاص – الوعي – العلم – العمل

د. حبيب زين العابدين

الإخلاص شرط أساسي لقبول أي عمل عند الله ، ولكن الإخلاص وحده لا يكفي بل الإخلاص يستلزم العلم ، والإخلاص دون علم قد يؤدي إلى المهالك ، فكثير من الناس بنياتهم الطيبة أمكن استغلالهم من الكفار والمنافقين ، فعملوا أعمالاً ليست في صالح المسلمين وربما لم يكونوا يقصدون الشر ، ومع ذلك وقعوا فيه ، لأن العمل كان مبنياً على الجهل وعدم المعرفة ، وربما الإنسان سلك وسيلة أو أسلوباً أو طريقاً مخالفاً للشرع وهو يقصد به الخير ، فأضاع الجهد والقصد الطيب وربما ناله الإثم والذنب والأذى ، قد يعجب بعضهم كيف يكون الإنسان مخلصاً ويعمل أعمالاً غير صحيحة ، والحقيقة أن الأمثلة في حياة البشر كثيرة ، ومن أقربها على الذهن المرأة التي تمتهن البغاء أو تسرق لتطعم الفقراء .

ولقد روي عن الفضيل بن عياض عند تفسير قول الله تعالى : ﴿ ... **أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ... ﴾ [الملك : ٢] إنّ أحسن العمل أخلصه وأصوبه ، فالإخلاص أن يكون العمل خالصاً لله ، والصواب أن يكون على ما جاءت به الشريعة ، فإذا كان العمل خالصاً و لم يكن صواباً لم يقبل ، وكذلك إن كان العمل صواباً و لم يكن خالصاً لم يقبله الله ، بسبب انعدام الإخلاص أو العلم .

ولقد نشأت وتنشأ في حياة أمتنا الإسلاميّة كوارث ومصائب بسبب الجهل ، وعدم توفر العلم الشرعي الصحيح ، فانقاد شباب لا يشك في إخلاصهم في اتخاذ وسائل وطرق لا يقرها الدين ولا الشرع .. جرّت الأمة إلى أهوال لا يعلم مداها إلاّ الله ﷻ .

ولا بد مع الإخلاص والعلم من الوعي الذي يوجههما الوجهة الصحيحة ويكملهما ، فبغير الوعي قد تتوجه الأعمال الصحيحة والمخلصة وجهة غير سليمة أو قد ترتب الأعمال الصحيحة ترتيباً معكوساً يؤدي إلى نتائج سيئة وبغير الوعي قد يشغل المرء نفسه مع إخلاصه وعلمه بصغائر الأمور وتوافهها ، أو قد يفهم بعض نصوص العلم فهماً خاطئاً ولذلك قال الله ﷻ : ﴿ ... **وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ** ﴾ [الحاقة : ١٢] وقد قال رسول الله ﷺ : « **نَضَّرَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَفِظَهَا وَوَعَاهَا وَأَدَّاهَا ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرُ فَقِيهٍ ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ** » رواه أبو داود برقم ٣٦٦٠ – وصحيح الترمذي برقم ٢١٣٩ ، ٢١٤٠ – ابن ماجه برقم ٢٣١،٢٣٢ – الدراس ١/٧٥ – مسند أحمد ١/٤٣٧ ، ٥/١٨٣ .

وقصة النفر الذين خرجوا في سرية فأمّر رسول الله ﷺ عليهم أحدهم ، فَقَالَ لَهُمْ : أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي ؟ قَالُوا : بَلَى . قَالَ : فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا ، ثُمَّ دَعَا بِنَارٍ فَأَضْرَمَهَا فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَتَدْخُلُنَّهَا ، فَقَالَ لَهُمْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ إِنَّمَا فَرَرْتُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ النَّارِ فَلاَ تَعْجَلُوا حَتَّى تَلْقَوْهُ ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوهَا فَادْخُلُوها ، قَالَ فَرَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ ﷺ لَهُمْ : « **لَوْ دَخَلْتُمُوهَا مَا خَرَجْتُمْ مِنْهَا أَبَدًا ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ ، لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ** » رواه البخاري – مسلم – النسائي يخرج .

لقد وعى هذا الصحابي أمر الله وأمر رسوله ﷺ في طاعة الأمير وعرف أن طاعة أولي الأمر إنما تكون في المعروف .

ونحن إنما نسوق مثل هذا المثل للتدليل على الذهن المتفتح والفهم العميق والبصيرة الواعية التي نحتاجها في فهم النصوص والحياة من حولنا ، وفهم عصرنا وعالمنا الذي نعيش فيه ، وأننا نحتاج مع العلم والإخلاص إلى آذان واعية ، وعيون بصيرة ، وقلوب مضيئة ، لا تأخذ الأمور على علاتها ومن سطحها فقط ، فكم من عالم مخلص لا يدري ماذا يدور حوله في الحياة ، وكم من علم مخلص لا يعيش في عصره بل يفكر بفكر رجال عاشوا في عصور ماضية ، وكم من عالم مخلص وجه إخلاصه وعلمه وجهة غير صحيحة لأنه يأخذ الأمور على علاتها أو من سطحها ، ولا يستطيع العالم في زماننا فهم الحياة إذا لم يستوعب الحضارات ، ويطّلع على الثقافات ، ويخبر اللعب السياسية ، ويعي المؤامرات المختلفة في عالم معقد متشابك كعالمنا اليوم .

إنّ هناك فارقاً كبيراً بين من يسمع الأخبار مثلاً ، فيصدقها ويتصرف على أساسها وبين من يستطيع أن يتبين بين السطور والكلمات معاني أخرى ، ويتنبه إلى ما تهدف إليه الكلمة والمقالة والحديث ، ويعي المقصود منها بناء على خبرة ودراية وقدرة على فحص الأمور ، واستنباط المقاصد ، ومن ثم التصرف على أساسها .

ولمثل هذا الترابط بين الإخلاص والعلم والوعي والعمل نحتاج في كل جانب من جوانب حياتنا .